

المحاضرة الأولى:

مدخل مفهومي للحضارة

تمهيد:

يقول ول ديورانت (Well Durant) في مقدمة سفره الضخم قصّة الحضارة : "إنّ الحضارة ظاهرة عامّة تحُصّ كلّ المجموعات البشرية في أزمنتهم و بيئاتهم و أشكال وجودهم المختلفة، فلا تتوقف الحضارة أو المدنية على جنس دون جنس، فقد تظهر في هذه القارة أو تلك، وقد تنشأ عن هذا اللون من البشرية أو ذاك، قد تظهر المدنية في بكين أو دلهي، في ممفيس أو بابل، في رافنا أو لندن، في بيرو أو يوقطان، فليس الجنس العظيم هو الذي يصنع المدينة، بل المدنية العظيمة هي التي تخلق الشعب لأن الظروف الاقتصادية و الجغرافية هي التي تخلق ثقافته، والثقافة تخلق النمط الذي يصاغ عليه..".

و تبعا لذلك فإنّ التّحضر هو وضع من الاجتماع الإنساني ذو مواصفات خاصّة في علاقة أفراد المجتمع بالأرض التي يعيشون فيها، وعلاقة هؤلاء الأفراد ببعضهم ، بحيث تثمر هذه العلاقات كلها نمطا من الحياة تنمو فيه المكتسبات المادّية و المعنويّة، متلوّنة بألوان مختلفة من حضارة لأخرى، و كما يعيش النّاس وضعاً من التّحضّر؛ فإنّهم يعيشون أيضا أوضاعاً أخرى لا تحضّر فيها، بل هي قائمة على التشتت في العلاقة بين الافراد، و في العلاقة بينهم و بين الأرض؛ فلا يكون استقرار يفضي الى كسوب مادّية و معنويّة، و إنّما هي بداءة و ترحال و توحش، يحافظ فيه الناس على الحد الأدنى الذي يحفظ الحياة.

يمكن القول في هذا السياق أن الحضارة ظاهرة عامّة رافقت الإنسان في تاريخه الطويل . منذ العصر الحجري إلى العصر النووي، فقد كان الانسان يصنع حضاراته، في كلّ مرّة يعيد فيها صياغة نفسه بما يتلاءم وحاجيّاته المتجدّدة والمتطورة، بحيث تعبر الحضارة عن خاصية الانسان في سعيه الدؤوب لتجاوز الواقع و رفض ما هو كائن بهدف الوصول إلى ما هو أفضل...

لذلك كانت الحضارة في كل مرة تشير إلى مفصل هام من مفاصل التاريخ البشري، أي إلى واقع التعددية التي عبّر الانسان بواسطتها عن انتقاله الدائم من حالة لأخرى في سياق تاريخ متواصل و متوتر. ففي حين يرجع الانسان في كل زمان و مكان إلى أصل واحد، توالدت منه البشرية جمعاء، فإنّ أفعال الانسان ترجع الى مصادر و عوامل مختلفة؛ لا تلغي واحدية الأصل و تعددية الممارسات ، بقدر ما تكشف في الكائن البشري عن طاقات و ردود أفعال غير متجانسة اتجاء الواقع و الطبيعة. و بينما يشترك جميع البشر في الانتماء الى طبيعة نوعية آدمية واحدة، إلا أنّهم يختلفون في أنماط وجودهم وفقا لتجاربهم الخاصة، ذلك أنّ دوافع التجربة و اشكالها و آلياتها ترتبط بمجموعة خاصة من العوامل النفسية و المجتمعية و الطبيعية و الاقتصادية و الفكرية ، و تندرج مجتمعة في سياق تاريخي محدّد وخاص تتبلور خلاله، و في اعقابه أفعال و انفعالات جماعة بشرية معينة في مواجهة هذه الدوافع والعوامل. وما يترتب عن ذلك كله من صياغة لنمط و جوديّ خاص بهذه الجماعة، و هو النمط الذي يجسد نمط إدارة هذه الجماعة ز و طريقة تعاملها مع هذه الدوافع و العوامل ، و ما تسفر عنه من نتائج تتأصل وتتشكّل لتأخذ صورة " الهوية " حيث تتأسس قاعدة التمايز و الاختلاف ، بين الجماعات البشرية ، انطلاقا من مبدأ التمايز و الاختلاف في كيفية التفاعل مع العوامل و الدوافع المذكورة...

و يتأكّد ذلك بالنظر الى مدى التنوع و التعدد في صور ونماذج الحضارات التي انتجها الكائن البشري منذ البدايات الى اليوم. فالحضارات التي اندثرت تاركة لغيرها اشعاعات مضيئة من اجل التقدم الذاتي او التفاعل الخارجي ، و الحضارات التي تعايشت في زمن متقارب، و تعرفت على ذواتها في ضروب الصراع و التنافس و التفاعل و التبادل و الاقتباس ، انما تؤكد واقع الوجود الخاص و المتعدد للحضارة في كل زمان و مكان، و بالتالي فلا نجد ان ثمة حاجة لدحض وجهة النظر القائلة هي احتكار للإبداع ، يتميز به شعب خاص او امة خاصة ، نافيا بذلك عن غيره من الشعوب إمكانية إقامة حضارة، عدا وجودها الملموس. ذلك ان وجهة النظر هذه تنطلق من واقع المقارنة و ليس من الواقع التاريخي، وتسقط صورتها بما هي . بطبيعة الحال الصورة الأكثر تقدما على الآخرين

كما ان تبريراتها لا تعود الى الخاصيّة الحضاريّة وحدها، بقدر ما تعود الى جملة من المصالح و السياسات ، التي تملي عليها القول بحصرية الحضارة في شعب او عرق او امة او عقيدة ، و بنفيها عن شعوب او اعراق او أمم او عقائد أخرى ...

إن الحضارة على اختلاف ألوانها محكومة بعوامل و سنن عامة ، سواء في حدوثها أساسا ، او تطورها و نماءها ، او في توقفها و انحلالها. و هذه العوامل و السنن قد تختلف في المحتوى التفصيلي الذي يلون الحضارات بالوان مختلفة ، و لكنها تلتقي متوحدة في عناوينها العامة بحيث لا يكون نشوء الحضارة ولا نماء و تطور فيها الا بفعل تلك العناوين العامة ، و كذلك الامر بالنسبة لارتكاس الحضارة و ذهابها...

في النقاط الاتية نحاول وضع معالم مفاهيمية للحضارة في ضوء مدلولها . كمفهوم . و عوامل نشوئها و قيامها ، و كيفية تداعيتها و أفولها ...

مفهوم الحضارة والتحضر:

الكلام عن الحضارة او التحضر يتشعب في كتب التاريخ و الفلسفة و الادب و السياسة و الجغرافيا والعلوم... اذ احصى عالما الانثروبولوجيا (علم الانسان) "الفريد كوبر" و "كلايد كلو كوهون" عام 1952 ما يزيد عن مائة و أربعة و ستين تعريفا للحضارة في اللغات العالمية . و قد اختلف الباحثون تبعا لمدارسهم الاجتماعية و التاريخية في تحديد معنى الحضارة و المدنية و الثقافة فهم قد يجمعون بينها و قد يفرقون ، فبعضهم يعطيها معنى شموليا كلياً، يشمل نشاطات الانسان كافة، و بعضهم يحصر المضمون الحضاري بمعنى الثقافة ، و يستعمل المدنية بمعنى الحضارة التي تمثل الجانب المادي وحده، أي يذهبون الى ان الحضارة مرادفة للمدنية ، و الثقافة تمثل الجانب الفكري و النشاط الإنساني و الذوق الفني . و الحضارة بشكل عام تشمل محصلة النشاط الإنساني ، و مظاهرها تشمل النظام السياسي والاقتصادي و الاجتماعي و الديني و الفكري و العلمي و الفني و الادبي و غير ذلك...

و حتى يتضح لنا مفهوم الحضارة و التحضر ، فلا بد من بيان مدلوله اللغوي، ثم الاصطلاحي، و بيان مقياسه القيمي الذي يحكمه...

1/ المدلول اللغوي:

الحضارة في مدلولها اللغوي تعني الإقامة في الحضر ، أي في المدن و القرى ، فكلمة "الحضارة" مشتقة من "التحضر"، و انما سميت الإقامة في المدن حضارة لان فيها يكون الحضور المستمر، فطبيعة حياتها الاستقرار ، و ذلك في مقابل حياة البادية التي طبيعتها التنقل و الارتحال ، تتبعاً لمواطن الماء والكأ..

و تطلق "حضارة" على "مدنية" و التي هي مشتقة من مدّن المدائن ، أي حضّرها و بناها، و نحتو منها فعل التمدن، و جعلو معناه : "تخلق باخلاق المدن، و خرج من حالة البداوة، و دخل في حالة الحضارة".

2/ المدلول الاصطلاحي:

من معنى الحضارة اللغوي نشأ مدلولها الاصطلاحي قائماً على ما تثمره حياة الاستقرار في الحضر من كسوب مادية و معنوية ينجزها الانسان الذي تستقر حياته، و لا تتأتى لمن يكون في حال بداوة و ترحال... من علوم و آداب و فنون و نظم و عمارة. فأطلقت إذن الحضارة اصطلاحاً على "الاثار و النتائج التي تنشأ من الحضارة"، لغة "و هي حالة الحضور و الاستقرار". و ذلك معهود في لسان العرب ، فكثيراً ما يطلق اللفظ مجازاً و اصطلاحاً على ما هو نتيجة او سبب او ملازم لما وضع له حقيقة.

لقد أشار "ابن خلدون" في تعريفه للحضارة الى هذا الارتباط بين استقرار الحياة و بين المنجزات الناشئة عنه، فعرفها بانها "نمط من الحياة المستقرة ينشئ القرى و الامصار، و يضيف على حياة أصحابه فنونا منتظمة من العيش و العمل و الاجتماع و العلم و الصناعة و إدارة شؤون الحكم و ترتيب وسائل الراحة و أسباب الرفاهية"

و في موطن آخر من مقدمته يركز ابن خلدون في تعريفه للحضارة على ثمار الاستقرار فيقول "الحضارة هي التفنن في الترف و استجادة احواله و الكلف بالصنائع التي تؤنق من اصنافه و سائر فنونه".

أما "ول ديورانت " فقد عرف الحضارة بأنها نظام اجتماعي يعين الانسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي ، و انما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، و النظم السياسية، و التقاليد الخلقية ،ومتابعة العلوم و الفنون".

و هذا التعريف يشبه تعريف ابن خلدون في ربطه بين وضع الحياة المستقرة و بين نتائجه من المكتسبات الناشئة عنه ، و لكن كأنما بدأ مفهوم الحضارة يستقر في الازهان على انه المنجزات المادية و المعنوية مع تناسي مفهوم الحضر او الاستقرار الذي هو شرط لها و ذلك ما هو شائع اليوم ، كما عبر لها احد الباحثين بقوله: " الحضارة بمفهومها العام هي ثمرة كل جهد يقوم به الانسان لتحسين ظروف حياته، سواء كان الجهد المبذول مقصودا او غير مقصود، و سواء كانت الثمرة مادية او معنوية".

و لا يخفى ان من الثمار المعنوية للجهد الذي يبذله الانسان لتحسين ظروف حياته ما يتوصل اليه من نظم و قواعد اجتماعية تحفظ استقرار الحياة و تؤكد فيبقى اذن معنى الاستقرار مضمنا في تعريف الحضارة بالمعنى ، حتى و ان وقع التغافل عنه في اللفظ فيكون معنى الحضارة مشتملا على الحياة المستقرة للإنسان و ما تثمره من منجزات مادية و معنوية لتحسين تلك الحياة و تأكيدها تنميتها.

و اذا كانت كل هذه التعريفات تركز على ثمرة الحضارة فان بعض المفكرين نحوا منحى اخر ، اعمق وادق حينما ركزوا في تعريفهم على العناصر و المكونات الرئيسية لها فقالوا: "الحضارة هي ثمرة التفاعل بين الانسان و الزمن و التراب " ، و هو تعريف مالك بن نبي، أو "هي ثمرة التفاعل بين الانسان والكون والحياة " و هو اختيار محمد سعيد رمضان البوطي...

وعلى أساس هذا التعريف ، فالحضارة ليست أكثر من ثمرات الجهد الذي بذله الانسان لاستغلال المكونات التي من حوله، في سبيل تحقيق مقومات المجتمع الإنساني و بث أسباب الخير و السعادة فيه.

3/المقياس القيمي للحضارة :

إذا كانت الحضارة ثمرة تفاعل الانسان مع محيطه في اطار زمني ما، و اذا كانت هذه الثمرة تعني حياة مستقرة منتجة لمنجزات مادية و معنوية، فما هو مقياسه القيمي (او المعيار الأخلاقي) الذي يحكم بالخيرية و الصلاح فيه ، أو بعكس ذلك من البشر و الفساد؟

ربما كان المعنى القيمي للحضارة السائد اليوم بين الناس هو ان تحضر شعبا ما او فئة ما او شخص ما يعني درجة من الرقي و الصلاح ، و اذا ذكرت الحضارة في التاريخ و نسبت لامة من الأمم عنت وصفا قيميا يتضمن الرفعة و الخير..و كانه أينما كانت الحضارة كان الخير و الصلاح لاهلها و للإنسانية جميعا،و حيثما انعدمت ساد الشر و الفساد ؟

ان هذا المعنى الذي غلب تأتّى من غلبة الحضارة المعاصرة التي روج لها أصحابها بوصفها "نموذج الصلاح و الخير " للناس ، و تأتّى من وقوع الشعوب المتخلفة في حالة الافتتان بها و الانبهار بمنجزاتها...ثم صار هذا المعنى ملاصقا للفظ "الحضارة" في مدلولها العام .

و الحقيقة ، فان الحضارة لا تحمل معنى قيميا بقدر ماهي "وصف موضوعي لحالة من الاجتماع البشري ، و هي حالة الاستقرار الذي يفضي الى المنجزات المادية و المعنوية ،و عليه فانه اذا كانت غاية الانسان في حياته هي ان يحقق السعادة متمثلة في الامن و الاطمئنان و يسر الحياة ، فان ذلك قد لا يتحقق بالحضارة بل قد تجلب له الحضارة نواقض كثيرة لذلك...فهي بذلك"وصف موضوعي و ليس وصفا قيميا و معياريا ، ان القيمية في الحضارة تستمد من تحقيقها للامن و الخير و التعاون ، لا من مجرد ترقى منجزاته المادية . وهذا المعنى القيمي بدأ يستقر عند نقاد الحضارة الغربية من أهلها ، و هو ما ذهب اليه الفيلسوف الألماني اشفيتزر حينما بين في كتابه "فلسفة

الحضارة" : " ان الحضارة هي التقدم الروحي و المادي للافراد و الجماهير على سواء يجعلون ارادتهم موجهة للخير المادي و الروحي لكل و الافراد الذين يتكون منهم الكل ".
و بهذا الميزان الأخلاقي للحضارة جعل اشفيتسر يوجه نقدا شديدا للحضارة الغربية التي طغت فيها

المادة على الاخلاق